محفوظ عبد الرحمن مؤرخا

سيد محمود*

بموت محفوظ عبد الرحمن، تواصل الدراما التليفزيونية خسارة أعمدتها التي جاءت من حقل الأدب التقليدي، وسعت لتأسيس الأدب التليفزيوني بحسب التعبير الذي صكه الناقد الراحل الكبير الدكتور عبد القادر القط في معالجته للمسلسلات رفيعة المستوي التي كتبها أسامة أنور عكاشة ومحفوظ عبد الرحمن، والربط بين الاسمين الكبيرين بالغ الإغراء.

فالمتأمل في أعمالهما بالذات سيكون أول ما يلفت نظره أنهما كانا جزءا من ظاهرة أدبية أوسع، تضم كتابا من جيلي الخمسينات والستينات، وأنهما اهتما أولا بنشر نصوص قصصية ومسرحية للحصول علي بطاقة اعتراف من الأوساط الأدبية، لكنهما أدركا مبكرا أيضا « سطوة التليفزيون» ونفوذه منذ أوائل السبعينات. ثم جاءت الفضائيات بعد عقدين فقط لتؤكد هذا النفوذ وتغير من المعادلات الثابتة في صياغة وعي الناس. وبعد أن كانت النخبة

---

* صحافي وشاعر مصري ورئيس تحرير جريدة القاهرة التي تصدرها وزارة الثقافة المصرية، نشر في جريدة الشروق، الثلاثاء ٢٢أغسطس ٢٠١٧.

obeikan.com

تصنع هذا الوعي بطرقها المستندة علي تقاليد كتابة المقال الأدبي أو السياسي، جاءت مع المحتوي التليفزيوني، قيم وفئات جديدة راهنت علي التأثير في»الشعبي» أكثر من النخبوي.

والناقد السعودي البارز عبدالله الغذامي أعطي في كتابه(الثقافة التليفزيونية) عدة أمثلة عن(سقوط النخبة وبروز الشعب)، مؤكدا أن الصورة التليفزيونية كسرت الحاجز الثقافي والتميز الطبقي بين الفئات فوسعت من دوائر الاستقبال، بحيث دخلت للمجال العام فئات لم تكن محسوبة علي قوائم الاستقبال الثقافي. وهذا لا يعني أن النخبة اختفت أو لم تعد قائمة وإنما فقدت دورها في القيادة والوصاية وتلاشت تبعا لذلك رمزيتها التقليدية..»ووفقا لهذا المعني درس باحثون، الأعمال التليفزيونية باعتبارها إحدي أدوات»الثقافة الجماهيرية» واسعة التأثير وفي القلب منها أعمال محفوظ عبد الرحمن وأسامة أنور عكاشة.

ويلفت النظر انشغال الراحلين بالتاريخ وسعيهما كلا علي حدة لتقديم معادل درامي لمساراته بشيئ من التأويل والقراءة التي تلائم انحيازاتهما، وقد جاءا من خلفية قومية وناصرية واضحة. وركزت أعمال عكاشة علي التاريخ المعاصر وتجلي ذلك في رائعته «ليالي الحلمية» التي تقدم تأويلا لمسار الصعود والهبوط في أحلام المصريين بالتغيير منذ ثورة ١٩١٩، وحتي عصر مبارك، لكن شغفه

قاده لطرح سؤاله الأكبر عن «هوية» المصريين في أعماله التي جاءت مع « أرابيسك» و«زيزينيا» و«المصراوية»، وفيها كلها وضع أمامه نموذج طه حسين وسعي إلي تمثله، وإذا كان عميد الأدب العربي صاغ سؤال الهوية المصرية وأجاب عنه في كتابه الشهير«مستقبل الثقافة في مصر» منحازا إلي هوية متوسطية، فقد با أن عكاشة غير قادر علي هذا الحسم بسبب الجذر العروبي في تكوينه. وهو هنا يتقاطع مع محفوظ عبد الرحمن في مساحة أخري، غير أن عبد الرحمن، درس التاريخ دراسة أكاديمية، لذلك أظهر شغفا واضحا بمفاصل التاريخ المصري ونقاط تحوله الحاسمة، ومثلما بدأ المفكر حسين فوزي كتابه الفاتن«سندباد مصري» من الجمعة الحزينة التي سقطت فيها هوية مصر علي باب زويلة وانقلبت من دولة مستقلة لدويلة عثمانية تابعة بعد هزيمة طومان باي، ذهب محفوظ عبد الرحمن في» الكتابة علي لحم يحترق» لنفس اللحظة ، وبلور عبرها اسمه ككاتب للدراما التليفزيونية بعد نجاحاته المسرحية، ثم واصل في «سليمان الحلبي، وليلة سقوط غرناطة» اللعب علي المفاصل التاريخية ودراما السقوط، إلي أن جاءت لحظة التتويج مع كتابة درته الكبري «بوابة الحلواني»، وفيها قدم تأويله لتجربة حفر قناة السويس وانشغال المصريين البسطاء بالعلاقة مع الآخر الغربي، وراجع كل المقولات الكبري المتعلقة بمفهومي «الحداثة» والتحديث.

وهنا لعب الكاتب الدرامي دور المؤرخ باقتدار فأعاد بناء الأزمنة والوقائع ، وشيّد عمرانه الخاص، واتسعت رؤاه للتاريخ مع صياغته الدرامية لتاريخ شخصيات كبري مثل « أم كلثوم وحليم وناصر٥٦» ، قدّم معها التاريخ من أسفل ، منحازا فيما كتب لأصوات المقموعين والمهمشين.

وربما يكون ما قدمه محفوظ عبد الرحمن هو أول تفعيل درامي لفكرة التاريخ بالتأوي كما طرحها الفيلسوف بول ريكور، وتعامل بجدية مع السؤال الإشكالي: كيف نفهم الوثائق أو النصوص التاريخية المنحدرة إلينا من الماضي؟ والمؤكد أن التأويل الدرامي الذي قدمه أسهم إسهاما كبيرا في تشكيل طبيعة المعرفة التاريخية نفسها لدي أجيال.

وفي ظني أن هذه هي الخسارة الكبري، فمع موته تخسر مصر كاتبا مستنيرا انحاز دوما لقيم العدالة والحرية والمساواة.

opelkan.com